المحاضرة الثالثة: مدارس الأدب المقارن: المدرسة الفرنسية 2/1

أهداف الدرس:

- ✓ **تتبع نشأة وتطور الأدب المقارن التاريخية**
- ✓ **تمييز المفاهيم التي من خلالها يمكن للطالب أن يفرق بين المدرسة الفرنسية والأمريكية**
- ✓ **التعرف على أهم مؤسسي المدرسة الفرنسية**
- ✓ **فهم التداخل بين مصطلحي التأثير والتأثر**
- ✓ **القدرة على تحليل النصوص الأدبية انطلاقا من الرؤى التي تتيحها المدرسة الفرنسية**

نص المحاضرة

إن الحديث عن المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن هو حديث عن أعرق الاتجاهات التي ميّز الرحلة الفكرية لهذا المجال، فكما قلنا سابقا كانت فرنسا أول من أسس **كرسي أكاديمي** للدراسات المقارنة في الجامعة، "إن ظهور تين وبرونتيير وسانت بيف لم يكن دون أثر إذ مهد الطريق أما تاريخ أدبي ضاقت به الحدود الوطنية الفرنسية فتاق إلى توسيع دائرة معارفه داخل أوروبا في المرحلة الأولى تحت دوافع تيارات موسوعية وكوسموبوليتانية إلا أن الخوض في **التاريخ الأوروبي العام** طرح إشكالات لم يستطع المؤرخ الأدبي حلّها فكان لزاما أن يخوض بول هزار في أزمة الضمير الأوروبي وفان تغم في الأدب المقارن وفردينانند بالدنسبرجر في بيبليوغرافيا الأدب المقارن" [1]، فهذه المحاولات كانت مهمة جدا في وضع الأسس واللبنات الأولى لهذه المدرسة وبالتالي يعد **فان تيغم وبول هازار و بالدنسبرجر** هم الرعيل الأول الذين خاضوا غمار تأسيس مدرسة كوّنت رؤية أصبحت تميزها إنها بمثابة فتح جديد سيلهم فيما بعد العديد من المفكرين كي يواصلوا طرح المفاهيم وتوسيع الرؤى، ويعتبر **رينيه ايتايمبل وفرانسوا غويار** من بين أبرز من واصلوا هذه المسيرة "التي عبّرت عن استمرارية وتطوير للأدوات والمناهج مع الجيل الثاني **جان ماري كاري، وجاك فوازين، ورينيه ايتيامبل،**

---

[1]- سعيد علوش: مدارس الأدب المقارن-دراسة منهجية-، ص55.

وفرانسوا غويار الذين تعاقبوا على كراسي الدراسات المقارنة كما تعاقبوا على إدارة مجلة الأدب المقارن يحدوهم تحقيق هدف المدرسة والذي تبلور عبر تأليف الكتب التعليمية الجامعية وأصبح كيانا قائما مع جيل ثالث هو **كلود بيشوا ودانيال هنري باجو** وبذلك تتأكد تاريخية المدرسة عبر تنويع مجالات العمل وتطوير المناهج والمقاربات"[1].

لقد كان المناخ في الأوساط الثقافية الفرنسية مهيأ لتطور الأدب المقارن وقد كانت عدة عوامل **سياسية وفلسفية وتاريخية** تؤكد قدرة هذا النوع من الدراسات على التوسع، فرؤية فرنسا الامبراطورية والاستعمارية في تلك الفترة كان لها الأثر الكبير في الاسهام بهذه التحولات الشاملة التي طالت مختلف الميادين "لقد حملت الثورة الفرنسية بذور تغيير عام ففكرة الاستقرار والتوحد حل محلها الحركة والتنوع وحل الاهتمام بالإنسان محل الاهتمام بالتاريخ وبدلا من الحقيقة الواحدة نشأت الحقائق المتعدد....ومن هنا تبلور تياران:

أ- **التيار القومي**: وهو تيار يدعو إلى وجوب الاقتصار على الآداب الفرنسية ويرفض الاهتمام بالتيارات الأجنبية.

ب- **التيار العالمي**: رأى هذا التيار أن الآداب الأوروبية نشأت عن عمليات تفاعل واسعة قامت على التأثر والتأثير وأن الاقتصار بالتالي على الآداب القومية وحدها يضر بهذه الآداب."[2]

أما على الصعيد الفلسفي فقد كان هو بدوره مهيأ لاحتواء الدرس المقارن في فرنسا، فقد وجد الأدب المقارن في **الفلسفة الوضعية** التي أسسها أوغست كونت خلفية مهمة ليؤسس رؤيته العلمية للظاهر الأدبية، إنها أي الفلسفة الوضعية تسعى إلى "وضع قوانين ثابتة للأدب ثبات القوانين في العلوم الطبيعية وحاولت تطبيقها على الأدباء مثلما تطبق قوانين الطبيعة على الجزئيات

---

[1]- سعيد علوش: مدارس الأدب المقارن-دراسة منهجية-، ص56.

[2]- الطاهر أحمد مكي، في الأدب المقارن-دراسة نظرية وتطبيقية-، ص ص 7-8.

والكليات"[1]، وبالتالي ظهر نقاد بارزون في هذا المجال من بينهم كما قلنا سابقا هيبوليت تين وبرونتيير وغوستاف لونسون وهؤلاء هم من يطلق عليهم رواد **المنهج التاريخي**.

كان لهؤلاء الكثير من الأفكار التي استلهمها فان تيغم وغيره لتأسيس رؤيتهم في الدرس المقارن، ويبدوا هذا جليا حينما أعلن جون جاك أمبير تمسكه بالنزعة التاريخية حين قال في محاضرته التي ألقاها في السوربون :"سنقوم أيها السادة بتلك الدراسات المقارنة التي بدونها لا يكتمل تاريخ الأدب"[2] ولتوضيح هذه الرؤية لا بد من الوقوف عند المفاهيم التي **أسسها هيبوليت تين** والمتمثلة في: **العرق والبيئة والعصر**. يقر يوسف وغليسي في كتابه **مناهج النقد الأدبي** أن **هيبوليت تين** "درس النصوص الأدبية في في ضوء تأثير ثلاثيته الشهيرة:

01- **العرق**: بمعنى الخصائص الفطرية الوراثية المشتركة بين أفراد الأمة الواحدة المنحدرة من جنس معين.

02- **البيئة**: بمعنى الفضاء الجغرافي وانعكاساته الاجتماعية في النص الأدبي.

03- **الزمان**: أي مجموع الظروف السياسية والثقافية والدينية التي من شأنها أن تمارس تأثيرا على النص."[3]

أما **برونتيار** فقد اعتبر الأدب مثله مثل الكائنات الحية تخضع للتطور وقد تأثر في هذا **بنظرية داروين** الشهيرة "لقد رأى أن الآداب تنقسم إلى فصائل أدبية مثلها مثل الكائنات الحية وأنها تنمو وتتكاثر متطورة من البساطة إلى التركيب في أزمنة متعاقبة حتى تصل إلى مرتبة من النضج قد تنتهي عندها وتتلاشى وتنقرض كما انقرضت بعض الفصائل الحيوانية"[4] ومن جهة أخرى يرى **سانت بيف** أنه من الضروري الاهتمام أثناء دراسة النصوص الأدبية بالأديب من مختلف جوانبه فقد "تناوله من خلال شخصيته وأسرته ووضعه الاجتماع والاقتصادي والثقافي وحاول تعرف كل دقيقة من دقائقه بما في ذلك

---

[1]- الطاهر أحمد مكي، في الأدب المقارن-دراسة نظرية وتطبيقية-، ص8.

[2]- محمد غنيمي هلال : دور الأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر، ص18.

[3]- يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي، دار جسور، الجزائر، ط1، 2007، ص16.

[4]- يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي، ص17.

النواحي الجسمية والصحية والخلقية، وذلك ليفسر العمل الأدبي في ضوء هذه المعارف، ولقد كان هذا الاهتمام بشخصية الأديب وربط العمل الأدبي به يتناسب مع **روح العصر** الذي ينتمي إليه بيف وهي روح الفردية العالية"[1] .

إذن هذا الثلاثي هو من كان له التأثير العميق في نهج المدرسة الفرنسية وقد استغل روادها كل هذه المفاهيم ليقيموا درسهم المقارن، وبالتالي بعد أن عرفنا مختلف الأجواء الثقافية والسياسية والمعرفية التي استندت عليها المدرسة الفرنسية سنباشر في الحديث عن أول مؤسس لها وهو **بول فان تيغم** وذلك من خلال تقديم قراءة في كتابه **الأدب المقارن** الذي يعد كما يقول في مقدمته أول محاولة في هذا المجال يقول: "**لا أعرف في أي لغة من اللغات كتابا خصصه مؤلفه لنظرية الأدب المقارن ومناهجه**"[2]

01- بول فان تيغم:

يكاد يجمع الباحثون أن بول فان تيغم يعد من بين أبرز النقاد الذين أسسوا لحقل الأدب المقارن في فرنسا وهو بحكم المولد والنشأة ينتمي لمدرسة كانت أول من بدأت تهتم بالدراسات المقارنة والحديث هنا عن المدرسة الفرنسية التي سنحاول في هذا الدرس وبقية الدروس القادمة إن شاء الله الحديث والتركيز عليها وذلك من خلال عرض فكري لأهم روادها بدء ببول فان تيغم مرورا بفرانسوا غويار معقبين أيضا على رينيه إيتيامبل الذي سنحاول من خلال ما طرحه من أفكار تبيين ما أطلق عليه **أزمة الأدب المقارن** في فرنسا.

بدأت اهتمامات بول فان تيغم بالأدب المقارن منذ أو دراسة له قدمها سنة 1911في **مجلة الأدب المقارن** وكذا مجلة **مكتبة الأدب المقارن** الأولى كان يشرف عليها بالدنسبرغر وغوستاف لانسون والثانية كان رئيسها بول هازار، وبعدها في سنة 1931طرح فان تيغم كتابا نظريا صاغ فيه منهجه ورؤيته للأدب المقارن، قدم فيه شرحا مسهبا "لنشأة الأدب المقارن وتطوره

---

[1]- وليد القصاب: منهج النقد الأدبي-رؤية إسلامية-، آفاق معرفة متجددة، دمشق، ط2، 2009، ص26.

[2]- فان تيغم : الأدب المقارن، تر: محمد محمود الخضري، دار الفكر العالمي، القاهرة، دط، دت، ص2.

ومناهج الأدب المقارن والأدب العام"[1]. ويعرف فان تيغم الأدب المقارن بقوله هو "دراسة آثار الآداب المختلفة من ناحية علاقتها بعضها ببعض وتشمل علاقات الأدبين اليوناني واللاتيني أحدهما بالآخر وما تدين به الآداب الحديثة منذ العصور الوسطى للآداب القديمة، ثم العلاقات بين الآداب الحديثة المعاصرة"[2] "وهذه **التأثيرات والتأثرات** هي على كل حال عنصر أساسي في تاريخ الأدب"[3] وفيما يخص هذه الثنائية يجب أن نذكر أنه في كتاب فان تيغم لم يصرح بأن كتابه هذا سيدرس مسألة التأثير والتأثر لأن هذا الأمر يحتاج إلى دراسة أخرى مستقلة، ولكن مع ذلك يعتبر أنه "من النادر أن يكون أثرا من الآثار الفكرية فريدا من نوعه معزولا عن غيره فما من لوحة أو تمثال أو لحن أو كتاب إلا ويدخل في زمرة من الزمر شعر بذلك المؤلف أم لم يشعر وعلى التأريخ الأدبي أن يضعه في موضعه من أنواع الأدب وصور الفن ثم يزين أصالته ما ورث عن غيره وما أورث غيره (...)أننا نزداد فهما لمدلول أثر من الآثار إذا نحن درسا الآثار التي أعقبته فليست اعترافات روسو هامة بذاتها فحسب بل بهذا العدد الجم من الترجمات الذاتية التي أعقبت خطاها وهذه التأثيرات والتأثرات هي على كل حال عنصر أساسي في تاريخ الأدب"[4] ويختم هذا الكلام بقوله إن " الأدب المقارن الحقيقي يحاول ككل علم حقيقي أن يشمل أكبر عدد من الوقائع المختلفة الأصل حتى يزداد فهمه وتعليله لكل واحدة منها على حدا"[5] وبعد حديثه عن مفهوم الادب المقارن يقودنا فان تيغم في فصل آخر ليسرد لنا ما سماه **بالحدود اللغوية** وهي تدخل ضمن المنهج الذي يستخدمه الادب المقارن للفصل بين الآداب القومية المختلفة التي تتخذ من لغة واحدة مشتركة أسلوبا تعبيريا لها "هناك حالات كثيرة يصعب أن نجد حلا عاما لها فكثير ما تكون اللغة السائدة في بلد من البلدان ممتدة إلى ما وراء حدوده وهنا لابد ان نتساءل هل نلحق الآثار التي تظهر فيها وراء هذه

---

[1]- عزالدين المناصرة: النقد الثقافي المقارن-نظور جدلي تفكيكي-، ص106.

[2]- فان تيغم: الأدب المقارن، ص28.

[3]- فان تيغم: الأدب المقارن، ص10.

[4]- فان تيغم: الأدب المقارن، ص10.

[5]- فان تيغم: الأدب المقارن، ص11.

الحدود بالأدب القومي الذي تنتجه الأمة؟"[1] ويرى فان تيغم أن ألمانيا تجاوزت هذا الأمر وأصبحت تدخل الكثير من الكتاب الذي ينحدرون من أصول نمساوية ضمن نطاق الأدب الألماني على عكس فرنسا التي كانت متشددة في هذا الأمر ومتمسكة بقوميتها إلى حد التعصب والشوفينية والانغلاق ويمكن أن نعد الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية أحد أبرز النماذج التي لم تعترف به فرنسا كإرث في الأدب الفرنسي.

وفي الأخير يلجأ بول فان تيغم إلى التفريق بين **الأدب المقارن والأدب العام** معتبرا أن"الأدب العام مجموعة من الآداب الخاصة ينبغي أن نحسن النظر إليها حتى لا نكون فريسة أخطاء قومية"[2].

ويفرق بين الأدب المقارن والأدب العام كالآتي:

- ✓ الأدب المقارن يدرس في الغالب علاقات ثنائية سواء كان هذين العنصرين كتابين أم أدبين
- ✓ أما الأدب العام فهو صفة لطائفة من الأبحاث التي تتناول الوقائع المشتركة بين عدد من الآداب فليس هو دراسات فنية أو نفسية حول الأدب ولا هو كذلك مايسمى بالتاريخ الأدبي فالاتساع المكاني هو الذي يميزه.

استنتاجات

مما سبق نستنتج مايلي:

- الأدب المقارن فرع من التاريخ الأدبي.
- استعمل فان تيغم مصطلح **التاريخ الأدبي العام والمقارن** مع أنه يقر أيضا باستعمال مصطلح الأدب المقارن على الرغم من اعترافه بقصره في التعبير عن موضوعان هذا النوع من الدراسات.
- يخرج فان تيغم نطاق **التأثير والتأثر** من كتابه وذلك في اعتقاد منه بأنها تحتاج إلى دراسة مستقلة.

---

[1]- فان تيغم: الأدب المقارن، ص63.

[2]- فان تيغم: الأدب المقارن، ص28.

أسئلة التقويم الذاتي:

1. إقرأ كتاب مدام دي ستايل **"عن ألمانيا"** وبيّن رؤية هذا الكتاب موضحا دور هذا الكتاب في التأسيس للدراسات المقارنة؟
2. وضح دور فان تيغم في نشأة الدراسات المقارنة في فرنسا؟
3. تحدث عن العوامل التي جعلت فرنسا موطأ للدراسات المقارنة؟